النـــــوابُ اليومَ والشعبُ غـــــداً

شاكر النابلسي

-١-
خرج الدستور العراقي إلى النور بعد مخاض ديمقراطي طويل، استطاع أن يقدم للعالم العربي تجربة ديمقراطية ناصعة، عساها تكون درساً عميقاً يُحتذى به في العالم العربي الذي يعيش بلا دساتير، وما كان منه بدساتير فهي دساتير لم يُستفتَ فيها الشعب. وما كان بدساتير تم الاستفتاء فيها، فقد أصبحت هذه الدساتير (بساطيل) في أرجل الحكام الديكتاتوريين خاصة.
خرج الدستور العراقي إلى النور. وغداً في ٢٠٠٥/١٠/١٥ سيُطرح على الشعب للاستفتاء عليه. وسوف يخرج الشعب العراقي الشجاع والحر بعيداً عن أي ضغط محلي أو اقليمي أو أجنبي ليقول كلمته، كما قالها في الثلاثين من كانون الثاني ٢٠٠٥ في الانتخابات التشريعية، أمام دهشة العالم كله وإعجابه بإصرار العراقيين على نيل حريتهم، وتحقيق ديمقراطيتهم.

-٢-
بعيداً عن تعليقات أصحاب الأعمدة اليومية في الصحافة العربية، وأصحاب الأفواه الكبيرة في الفضائيات العربية، ممن يفتون في الدستور والطنبور، والفيدرالية والملوخية، ولا يتورعون عن الإجابة على كل سؤال وحال، فيما يعلمون وفيما لا يعلمون، فقد لاحظ الدستوريون العرب، ومنهم الدستوري والسياسي المغربي العريق عبد الهادي بوطالب مؤلف (المرجع في القانون الدستوري والمؤسسات السياسية) وأستاذ القانون الدستوري في الجامعة المغربية، أن صياغة الدستور العراقي تحتاج إلى "سبك قانوني" من قبل قانونيين متخصصين بكتابة الدستور من العراق ومن غير العراقيين. بعد أن لاحظ بوطالب هلهلة الدستور العراقي، وعدم ترابطه القانوني المحكم. ولم يمانع بوطالب الاستعانة بخبراء من الأجانب من ذوي الباع القانوني الطويل في صياغة الدساتير. ومرد هذا الطلب، ملاحظة هؤلاء الدستوريين من أن العرب قليلو الخبرة في الصياغات الدستورية. فلم يعد لدينا أمثال القانوني المصري عبد الرزاق السنهوري (١٨٩٥-١٩٧١) الصائغ الماهر للكثير من الدساتير والقوانين العربية في مصر والعراق وسوريا وليبيا والكويت والسودان والبحرين والإمارات العربية المتحدة، إلى حد وصفه الأصوليون بأنه "طاغوت القوانين الوضعية المعاصرة".

-٣-
كما لاحظ الدستوريون العرب، أن الدستور العراقي تضمّن مواد قانونية لا توضع عادة في الدستور الذي يتعالى على مثل هذه القوانين، بل توضع في قوانين منفصلة. وكل هذا يعود إلى السرعة الجنونية القصوى التي تمّ فيها وضع الدستور العراقي تحت الضغط الأمريكي بأن ينتهي وضع هذا الدستور في الموعد المحدد له (٢٠٠٥/٨/١٥) دون أي اعتبار لتعقيدات الوضع الأمني والسياسي والاجتماعي والمذهب الديني في العراق.
فالدستور هو المدماك الأول والأساسي في بناء صرح العراق الجديد. وكان يجب التأني في وضع هذا المدماك في مكانه الصحيح وبالشكل السليم. لقد قضت أمريكا ثلاث سنوات من البحث والتنقيب والمراجعة والتصحيح لدستورها، فلماذا تطلب من "الجمعية الوطنية" الإسراع في الانتهاء من الدستور مسلوقاً ونيئاً، وليس مطبوخاً بتؤدة وتأنٍ وعلى نار خفيفة دون (شلوطة)، لكي يسجل بوش نقطة نجاح، ترفع من شعبيته المتدنية الآن في الشارع الأمريكي؟
صحيح أن الظروف الآن اختلفت. فلا العراق أمريكا ولا الشعب العراقي هو الشعب الأمريكي، ولا اللحظة التاريخية قبل أكثر من ٢٥٠ سنة هي اللحظة التاريخية الآن. ولكن هذا لا يمنع من أن نعطي الدستور العراقي الوقت الكافي للصياغة والتفهم والمناقشة، لأنه سيكون أهم دستور عربي نتيجة لوضع العراق التاريخي والديني والعرقي والحضاري.. الخ.

-٤-
أما وقد انتهت "الجمعية الوطنية" العراقية من وضع مسودة الدستور، وسوف تطرحه في ٢٠٠٥/١٠/١٥ للاستفتاء العام، فالخطوة التالية يجب أن تكون القيام بحملات توعية وشرح لمواد الدستور لجماهير الشعب العراقي من خلال الإعلام المقروء والمسموع والمشاهد، ومن خلال المدارس والجامعات والمعاهد، ومن خلال الندوات الشعبية التي على الأحزاب العراقية المتعددة أن تنظمها لمناصريها ولا سيما فيما يتعلق بالفيدرالية المقترحة التي يجب أن لا تقوم في العراق على فوارق الدين، والمذهب، والطائفة، والعرق، واللغة، بل على تقسيم جغرافي إقليمي جهوي تذوب فيه الفوارق، وتلتقي به الفصائل على وحدة المواطنة والوطن والتراب والعُملة الوطنية. وما دون ذلك فهو تكريس للتقسيم والتفتيت، ستصبح معه فيديرالية العراق حالة خاصة شاذة متميزة بندرتها، تجعل منها بدعة مستهجَنة كما لاحظ كثير من المفكرين الليبراليين العرب، ومنهم عبد الهادي بوطالب. فمثل هذا التنوير الإعلامي العقلي من شأنه أن يقنع لا جموع السنّة العرب من أيتام صدام، الذين ساروا بتظاهرات بالأمس في شوارع تكريت رافعين صور الديكتاتور المخلوع، ولكن هذا التنوير الإعلامي سيقنع أشراف السنّة العرب الأحرار من الناخبين العراقيين وما أكثرهم للتصويت للدستور الذي هو لهم ولابنائهم وأحفادهم، وليس لمن عارضوه ورفضوه معارضة ألواح الخشب التي نخرها السوس لبزوغ الفجر، ورفض الحصى لتدفق النهر. وعدم تفويت الفرصة الأخيرة لمشاركتهم في بناء العراق الجديد، كما سبق وفوّتوها في الانتخابات التشريعية في نهاية كانون الثاني الماضي، لاحداث فراغ سياسي سُنّي متعمد في العراق بتشجيع من دول الجوار، وأقصوا أنفسهم بأنفسهم عن عملية البناء السياسي للعراق، ولم يتم اقصاؤهم من أحد، كما يدعي الكتّاب العرب والعجم، وعلى رأسهم الكاتب الأمريكي ديفيد فيلبس (هل سيقود الدستور العراقي إلى حرب أهلية؟ واشنطن بوست، ولوس انجلوس تايمز)

-٥-
فلماذا نصرٌ على منتصف تشرين الأول لطرح الدستور للاستفتاء، دون أن نترك للشعب العراقي الفرصة الكافية والزمن اللازم لقراءة هذا الدستور، والتمعن في مواده، وفهم مضمونه، كما حصل في عدة دول متقدمة، ومنها المانيا بعد الحرب العالمية الثانية؟ وهذا كله ما يستدعي وقتاً أطول من الموعد المحدد، وهو منتصف تشرين الأول القادم.
ولماذا موعد منتصف تشرين الأول الضيق والقصير للاستفتاء على الدستور، والعراق انتظر عقوداً وعقوداً دون دستور ديمقراطي؟
فهل كان منتصف تشرين الأول موعداً مكتوباً في اللوح المحفوظ أم أن منتصف تشرين الأول هو ليلة القدر العراقية؟
أم أن في منتصف تشرين الأول ستقترب الساعة وينشق القمر؟

حصان قرطاجة أو فلسفات ضد العلم

د. واثق ابراهيم الدليمي

قد يبدو من الغريب التحدث عن فلسفة مضادة للعلم، فالفلسفة هي ذاتها علم من العلوم فهل يمكن ان تتعارض العلوم مع بعضها؟ ام ان الفلسفة ليست بعلم؟ واذا ما قارنا التعاريف الرسمية للعلم والفلسفة سنجد انهما يشتركان في محاولة اكتشاف السنن الموضوعية للعالم الفعلي (الطبيعة، الانسان، والمجتمع) واتجاهات تطوره. كما ان العلاقة بين العلم والفلسفة علاقة جدلية ذات اتجاهين، فرغم انسلاخ العلوم الواحد تلو الاخر بتطور الانسانية تدريجياً عن الفلسفة، الا ان الواجب الجديد الذي ألقي على عاتق الفلسفة الحديثة هو أخذها نتائج العلوم الاختصاصية وتعميم هذه النتائج لاستخلاص القوانين العامة التي تحكم العالم الفعلي وبذلك تزودنا الفلسفة بالقاعدة الفكرية العلمية الصحيحة التي (يجب) على نظرة العالم المختص والانسان العادي الاستناد اليها.

هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان نتائج الاكتشافات الجديدة للعلوم تثري الفلسفة وتصحح في كثير من الأديان اخطاءها المعرفية او تلغي مالم يعد علميا فيها بل حتى يمكن لها ان تعيد بناء الفلسفة جذريا كما حصل بعد نشر النظرية النسبية لآينشتاين والتحقق من صحة ادعاءاتها، فكيف إذن لفلسفة ان تكون ضد العلم؟
ان اية دراسة تعالج النسق او البنية فقط وتهمل التطور التاريخي ستكون بعيدة عن الشمولية المطلوبة في أي بحث ليستحق صفة العلمية، لذا فان دراسة العلاقة التاريخية بين العلم والفلسفة في خطوطها العريضة في اقل تقدير ضرورة قصوى وتمهيد لابد منه لفهم منطلقات الفلسفات المضادة للعلم وبناها وانساقها الحالية.
لقد ولدت الفلسفة من رحم الدين فكانت بالضرورة مثالية التوجه وليست مادية بدءاً. طبعا بالمعنى الفلسفي وليس الاجتماعي لكن من المثالية والمادية. وعملت شهوة المؤسسة الدينية للسلطة على فرض الفلسفة المثالية كوسيلة لا فقط مثلى بل الوحيدة المقبولة من قبل الخالق والحاكم على مستوى المجتمع، ولاحكام السيطرة على الشعب ضمت هذه المؤسسة ورعت بحوث العلوم الطبيعية (الفيزياء. الميكانيكا والكيمياء على وجه الخصوص) في محاولة منها للافادة من منجزات هذه العلوم فمثلا كان كهنة الفراعنة يفيدون من زيادة ضغط الهواء داخل المحراب عند سخونته بسبب اشعال نيران المذبح فيضغط على الماء الموجود في اناء مخفي تحت الارض ليندفع ويحرك آلية لفتح باب المعبد (تلقائيا) لجعل الشعب المصري يؤمن بالمعجزات، وليس مصادفة ان تكون ابحاث الكثيرين ممن طوروا العلوم الطبيعية وحتى منتصف القرن السابع عشر الميلادي قد تمت في كنف المؤسسة الدينية الكنسية من نحو كوبرنيكوس، باسكال، مندل، ونيوتن.
الا ان هذا الابن (العلم) بدأ بالعقوق والتمرد على الأم التي رعته (الفلسفة المثالية) عندما:
١. بدأت اكتشافات العلم تتعارض مع مسلمات المثالية (الدينية على وجه التحديد)، فقد أعطى العلم اول مرة وسائل للتحقق من صحة كل الادعاءات التي كانت مثالية (سحرية ثم تحولت بالتدريج الى منظومة دينية) في بدايات تاريخ البشرية، فلم يتسن قبل نضوج العلم هذا التحقق، فكانت الادعاءات تؤخذ على علاتها خصوصا اذا ما صدرت او بوركت من قبل المؤسسة الدينية.
٢. بدأ فلاسفة المادية الاوائل بخط طريق جديد معارض للمثالية الدينية ممثلا في النظر الى العالم على اساس مادي والتخلي عن فكرة الخالق الأول لتفسير حركة العالم المادي والانسان والمجتمع بعد ان اكتشفوا ان الهدف الحقيقي للمؤسسات الدينية لترويج الفلسفة المثالية هو الامساك بزمام السلطة لذلك كان التاريخ الانساني لمفهوم الإله يتطور حسب مستوى تطور الانسان نفسه. ففي المرحلة التي سبقت اكتشاف الزراعة والتي كانت فيها البشرية مجموعات تلتقط الطعام النباتي التقاطا او تصطاد تصادفه من الحيوانات لم يكن لهذه المجموعات البشرية غير المنتجة دين أو آلهة للعبادة، وفي المرحلة اللاحقة وعندما بدأت هذه المجموعات بانتاج ادوات الصيد ونصب الفخاخ للحيوانات للايقاع بها نشأت اول بوادر الدين بصورة أفكار استباقية سحرية كانت تتجسد رسما على جدران الكهوف التي عاش بها انسان ذلك العصر في محاولة لايقاع الحيوان في الفخ وقتله بالادوات البسيطة التي كانت تنتج في ذلك الوقت من الحجارة وعظام الحيوانات الميتة فالرسم يمثل استباقا لحدث الصيد وشحنة فكرية وهمية للصياد يقول ان الرسم ينقل غدا الى الواقع. وبعد ان اكتشف الانسان الزراعة وتحول من حياة الالتقاط والصيد المتنقلة بالضرورة وبدأ استقرارها وبدأ ملكية الارض الخصبة، ووسائل الزراعة ومنها الحيوانات التي دجنها لهذا الغرض، والمحصول الزراعي، بدأ الانسان (يخاف) على ملكيته هذه من القوى التي تسيطر على هذه الملكية والتي تقع خارج سيطرته هو كالشمس والامطار والرياح والتي لم يكن الانسان بعد يدرك كنهها وغير قادر على التنبؤ بها والسيطرة عليها للحد من تأثيراتها الاقتصادية على ملكيته فكان الطريق الوحيد للانسان للحد من تأثيرات احتجاب الشمس وراء الغيوم لفترات طويلة مثلا او شحة الامطار او الفيضان او الرياح العاتية على محصوله الزراعي هو محاولة استرضاء هذه القوى باسباغ صفات بشرية عليها من رضا ومكافأة او غضب ومعاقبة وفي مرحلة لاحقة من هذا التطور ونشوء القرى البشرية الاولى وتنامي التخصص في العمل فصل الانسان مكانا خاصا لعملية التعامل مع هذه القوى و عين اناسا مهمتهم اجراء هذا التعامل واعفاهم من عمل الزراعة فنشأت المؤسسات الدينية ولأن هذه المؤسسة غير منتجة كان لزاما على اعضائها ادامة الخوف الانساني من هذه القوى لزيادة مردودها المادي (حصة من الناتج الزراعي) بل وتعدى الأمر الى ادعاء هذه المؤسسة حجم السلطة الممكن استلابها بهذا الادعاء فاقتربت قداسة الآلهة من قداسة المؤسسة الدينية البشرية تدريجيا. وبتطور المجتمع البشري الى الحضارات المدنية الكبيرة في وادي الرافدين والنيل صار الحاكم هو الاله الجامع لسلطتي الدولة والدين وصارت أية محاولة (مدنية) لرفض تنفيذ اوامر هذا الحاكم او معارضته هي معارضة للآلهة لا أقل، ومرة اخرى تمخض الفكر البشري المستغل (بفتح التاء) عن حل عبقري في محاولة لا لانتزاع جزء من هذه السلطة المطلقة للحاكم الإله وتحجيمها الى سلطة دنيوية فقط بل ايضا لامكانية معارضتها بسلطة اله خارج في صفاته عن الكينونة البشرية والطبيعية، فكانت الديانات اللاحقة في الحقيقة محاولات تحررية تقدمية في بادئ امرها. الا ان هذا التوجه الذي كان في اول امره تحرريا تحول تدريجيا الى دكتاتورية اخرى تنتزع ما تريده المؤسسة (الدينية. البشرية) باسم الإله. وكل محاولة للوقوف بوجه هذا التوجه او حتى نقده ولو من داخله (كما هو الحال مع لوثر عندما ترجم الانجيل او ابن سينا وابن رشد) يواجه بعنف اطلاق الحكم التكفيري واستباحة دماء المعارضة، بل ان التاريخ البشري القادم سيرتكز في الكثير من صفحاته على الصراع بين هذه السلطات الثلاثة: الدولة ممثلة بالحاكم او الملك، المؤسسة الدينية، والشعب.
٣. فكان صراع الدولة والمؤسسة الدينية على السلطة دافعا كبيرا لملوك اوربا (العالم القديم) لتشجيع التوجهات العلمية ماديا ومعنويا. وحتى الفلسفية والأدبية. لتحجيم سلطة المؤسسة الدينية بالسماح بانتقاد وهز اسس هذه المؤسسة ومعارضة ادعاءاتها وطروحاتها، فقد كان سلاح الحرم سيفا بيد المؤسسة الكنسية مسلطا على رقاب الملوك والأمراء، فتحرم هؤلاء من المسيحية وقد تحرم رعاياهم فلا تكتفي هذه المؤسسة الكنسية بكف الكنائس عن دق نواقيسها واقفال ابوابها فلا يستطيع احد ان يتزوج ويحمل الموتى الى قبورهم دون صلاة بل ايضا تغري الملوك والامراء المجاورين بالإغارة على امارة وبلد المحروم من المسيحية وتبارك غارته هذه كما حصل مع هنري الرابع امبراطور المانيا الذي ما ان اختلف مع البابا غريغوريوس حتى (حرمه) البابا وألب عليه كل امراء المانيا، فاضطره الخوف من المؤامرات التي صارت تحاك ضده للفوز بكرسي الامبراطورية من الامراء الطامعين لان يخرج ساعيا الى الباب يطلب مغفرته ووقف على باب قصر البابا ثلاثة ايام في لباس الرهبان حافي القدمين حاسر الرأس ويقر بتوبته بصوت عال حتى قبل البابا توبته واعاده الى كنف المسيحية مرة اخرى الا ان نار الانتقام ظلت تعتمل في قلبه فعاد بعد ان جهز جيشا جرارا وطرد البابا واستخلف غيره، وكما حصل ايضا مع ملك انكلترا يوحنا الذي اختلف مع البابا فلم يكتف الاخير بحرمانه وتعطيل الكنائس وحرمان الشعب الانكليزي برمته بل شجع ملك فرنسا على غزو انكلترا وبمباركة من البابا فاضطر الملك لان يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا الذي صفح عنه بعد ان اظهر الملك من الذل العلني ما تعتبره الدولة الانكليزية حتى الان اكبر خزي لحق بالملكية البريطانية، فكان التشجيع الملكي للفلاسفة والعلماء والادباء لنقد المؤسسة الدينية فكرا وبيان فسادها مؤسساتيا اسلم طريقة (غير مباشرة) لتحجيم سلطة المؤسسة الدينية.
٤- ومما عجل هذه العملية التزامن التاريخي لهذا التشجيع مع نهوض البرجوازية كطبقة جديدة في اوربا ومحاولتها فرض اخلاقيات وتوجهات اجتماعية وبناء مؤسسات دولة تلائم توجهاتها الاقتصادية الرأسمالية تحديدا ونجحت في آخر الامر بمواجهة الوحي بالمنطق، واللاهوت بالمادية الذرية الميكانيكية، والآخرة بالطبيعة، والتعمية والتظليلية الاسكولائية بالوضوح والتسلسل العلمي، والاستنتاج الارسطي. التوماني بالاستقراء البيكوني. الديكارتي، والثيوقراطية (الحكم الديني) بالعلمانية، والحقوق الالهية بالعقد الاجتماعي، وتراتبية الحسب والنسب واللقب بالمساواة الحقوقية بين البشر، والاستبداد الديني الشمولي بالليبرالية والحرية الفردية، والتأملات الشخصية بالتاريخية، والحكمة الالهية والقدر بتطور مستوى الانتاج وصراع الطبقات.
٥. الاتحاد الفريد الذي تم بين الرأسمالية والعلم بعد تحول البرجوازية الى النمط الانتاجي الافضل (المكننة) وارتباط هذا التحول وبدفع منه بتحول العلوم الطبيعية الى المنهج الأكثر قوة في تحصيل المعرفة، بهدف اساسي هو حل مشكلات الانتاج الفنية والتقنية علميا، فكان النجاح الباهر للعلم في زيادة الانتاج الرأسمالي وبصورة لم يشهدها العالم قبلا هو المفتاح الذي اخرج العلم من حظيرة النخب العلمية الى حياة الناس العاديين وصار يشمل بتأثيراته تدريجيا كل افكارهم ومعتقداتهم وموروثهم الفكري. فأدى ذلك الى نتائج عظيمة الاهمية في البنية الاجتماعية البشرية عموما وبنية الفلسفة المثالية تحديدا.
١. انسلاخ العلوم الطبيعية وانفصالها التدريجي عن جسد الفلسفة المثالية (الدينية) فبعد ان كانت المؤسسة الدينية (جامعا) لكل مؤسسات الدولة السياسية، العسكرية، الاقتصادية، التعليمية، الثقافية.. الخ، اضطرت للتقلص والاكتفاء بمعالجة المنظومة الاخلاقية في المجتمع. الا ان تطور علوم كعلوم الاجتماع (السوسيولوجي)، وعلم الانسان (الانثروبولوجي)، وعلم النفس (السيكولوجي) صار يتعدى ويستلب حتى هذا النزر اليسير ما تبقى للمؤسسة الدينية.
٢. تغير المقولات التي تسيطر على الخطاب الاجتماعي بسبب التحول من السيطرة الاستبدادية الشمولية للمؤسسة الدينية الى السيطرة العلمية، فبعد ان كانت الثقافة الشعبية وثقافة النخبة مشبعة بمصطلحات (الاله، التسيير، التخيير، السماء، الملائكة، الجن، الروح، الجنة والنار، النعمة، الخلق، البعث.. الخ) تراجعت تدريجيا هذه المقولات وصار الخطاب الاجتماعي الحديث يضم مصطلحات مثل (المكان، الزمان، الذرة، الجسم، الاستقراء، اصل الانواع، الاقتصاد السياسي، الطبقة الاجتماعية وصراع الطبقات، مستوى الانتاج.. الخ) بل صار الخطاب الاجتماعي الاحدث يضم مصطلحات مثل (الانترنت، تقنيات الاتصال والمعلومات، الكومبيوتر، السيبرناطيقا، التقنيات الحيوية والجينات.. الخ).
ان هذا التحول المستمر لمقولات ومصطلحات الخطاب الاجتماعي العام والنخبوي كان بسبب تنامي هيمنة العلوم الحديثة على كل نواحي الحياة وفرضها مقولاتها وتصوراتها ومشاكلها ايضا على حساب تراجع مستمر ايضا لمقولات الخطاب الديني فصار لزاما على الفلسفة المثالية ان تتغير اذا ما اراد تجنب السحق ان هي بقيت في خنادقها الاولية في مواجهة طغيان تيار العلم. لقد أملى العلم عليها لا طبيعة المشاكل الجديدة التي ينبغي عليها ان تتناولها وتعالجها فقط، بل نوع الحلول والاجوبة المقبولة التي يمكنها تقديمها دون الارتداد الى الفكر الظلامي الرجعي التظليلي بل حتى سرعة هذا التغير.
لقد وجدت المثالية نفسها في موقع يفرض عليها ان تعيد تنظيمها وتنظيرها وتجديد طروحاتها ولو على مستوى المسطلحات فقط اذا ما ارادت مؤسستها الاحتفاظ بميزاتها الاجتماعية ولو جزئيا. فكان المخرج الوحيد لأزمة المثالية هذه هو بناء فلسفة جديدة تناسب العلوم الحديثة وليس العكس كما تدعي، ليس هذا فقط بل كان لزاما عليها وهي تعيد ترميم بنائها المتهرئ بسبب ضربات العلم القوية ان تستعير من العلم الحديث ماديته!
بالطبع كانت هذه الاستعارة تستند الى عدد من الاستراتيجيات الفلسفية لضمان بقاء توجهاتها العامة في الفلسفة الجديدة ولو ضمنيا.
١. (ثنائية العالم) التي أكمل طروحاتها الفيلسوف الفرنسي ديكارت، فنتيجة الانتصارات العلمية التي حققتها المادية الميانيكية في عصره والتي اغتنت ايضا بسبب ابحاث ديكارت نفسه من جهة، ومن جهة اخرى الموروث الروحي والديني لديكارت وعصره الذي كان من الصعب التخلي عنه، (اضطر) ديكارت الى فصل الوجود الى عالمين الاول عالم المادة حيث الآلية والحتمية تكون فاعلة، وعالم الروح حيث الفكر والغائية هما الفاعلان، فاضطرار ديكارت لم يكن في حقيقته شكاً منهجياً بل محاولة توفيقية بين العلوم والدين بعد تضخم الاول المتنامي والتراجع المستمر للأخير. ورغم نجاحه في الدفاع المستميت عن الدين الا ان فلسفته قد ضيقت تاريخيا دائرة نفوذ الفكر الديني على العالم، فقد صارت القاعدة المقبولة لتفسير كل الظواهر الطبيعية مادية ودون الاستعانة بقوة خارقة او علل غائية، بعد ان كانت تفسيرات كهذه تغضب المؤسسة الدينية وما يستتبعه من تسفيه او تكفير.
٢. (التجربة المثالية) التي تبناها الفيلسوف باركلي والتي تستند الى تجريبية حسية متشددة، بحيث تنكر كل وجود لأي كينونة لا تستطيع ان تحفز اعضاء الحس البشرية. وهنا يستعير الفيلسوف باركلي التجريبية من العلم لا ليجدد المثالية الروحية فقط بل ليقلبها ضد العلم نفسه بحيث ينكر باسمها احد اهم مقوماته أي المادية الذرية فالعلم يتطور بافتراضات قد لا يكون في وقت افتراضها قادرا على البرهنة التقنية (العلمية) على وجودها كما هو الحال مع فلسفة نيوتن التي افترضت المادية الذرية وحتى افتراضات النظرية النسبية لاينشتاين لم يتمكن العلم التقني من اثبات صحتها الا بعد سنين طويلة من نشر النظرية.
٣. (التأويل الاداتي للعلم) والتي تدعي ان كل النظريات العلمية هي في الحقيقة تجريد وبناء (عقلي. وهمي) مهمتها الاساسية مساعدة الانسان على التعامل مع الواقع الحقيقي الفعلي بشكل افضل ليس الا، أي ان العلم ليس مصدر المعرفة الحقيقية، طبعا الهدف الرئيس لهذه الطروحات هو فتح الباب الخلفي للدين والميتافيزيقيا للعودة بعد تسفيه الاعتبار المعرفي للعلوم.
ولقد اخذت هذه الفلسفة المضادة للعلم اوجها عدة على مدى التاريخ وتبناها جهلا اوعمدا الكثير من المفكرين والفلاسفة.
❖فافترض الفيلسوفان (فيتجنشتاين) و (هانز رايخنباخ) ان العلم هو شبكة يتم اسقاطها تعسفيا وارادياً على (سطح) الظواهر لتفسير هذا السطح فهي. أي الشبكة. اذن:
أ. لا تكشف شيئا عن السطوح التي تنشر عليها، أي ظواهر العالم الحقيقي (الطبيعة، والانسان، والمجتمع).
ب. تخضع لقوانين السببية والحتمية العلمية وليس السطح المنشورة عليه هو ما يتبع هذه القوانين.
❖وافترض الفيلسوف كارل بوبر ان العلم هو ابداع روحي فردي حر يمارسه العباقرة بصورة غير قابلة لأي فهم او تفسير بغرض وصف الطبيعة في افضل الاحوال وليس معرفتها معرفة حقيقية لذا يرفع شعاره الشهير (نحن لا نعرف بل بامكاننا ان نخمن فقط).
❖واستبدل الفيلسوف توماس كون فكرة الشبكة بالنموذج العلمي (البراديم) الذي يصطنعه العقل ليواجه الظواهر الطبيعية وبذلك يفترض ان:
أ. عدد النماذج العلمية الممكنة التطبيق في الواقع غير محدود.
ب. ان كل نموذج من هذه النماذج هو صحيح وصادق وقادر على تفسير الظواهر بالنسبة الى من يلتزمون به.
ت. ان المفاضلة الموضوعية بين نموذج واخر غير ممكنة وان القيمة المعرفية للنماذج كلها متساوية فليس هناك مرجع تحتكم اليه هذه المقارنات والمفاضلات، لاغيا بذلك التطور المعرفي الذي حصل من النموذج الارسطي الى النيوتني ومن ثم الى النسبي الآينشتايني، فهذه الفلسفة تفترض ان كم الصدق العلمي للنماذج الثلاثة متساوٍ.
❖اما الفليسوف (كانت) فقد جعل الموضوعات الخارجة عن الذات الانسانية في كل مظاهرها (الطبيعية والمجتمع) كواكب تدور حول مركز ذات الانسان وفكره، أي انه نقل مركزية الفكر (الموضوعي) الى مركزية الانسان (الذاتية) واتبعه له، فافترض ان كل الموضوعات التي يدرسها العلم ويفسرها سببيا هي من صنع الذات او الروح او العقل، ومحور عالم الظواهر حول الروح بدل ترك الروح تبحث عن صدق افكارها وفاعليتها بمراجعتها على الواقع الخارجي المستقل، فكانت فلسفته تراجعا عن الواقعية العلمية لصالح الايمان والمادية العصرية لصالح الروح وعن الحتمية السببية لصالح تلقائية الافعال.
ان هذه المحاولات الفلسفية قد استندت في بناء فكرها الفلسفي الى ان الارتداد الصريح نحو المثالية لم يعد ممكنا حتى بالنسبة للناس متوسطي الثقافة بعد ان تطور الفكر العلمي حتى صار معه أي وقوف صريح ضده سينظر له على انه اغراق في رجعية واضحة.
٤. (الرومانسية المثالية) التي تفترض ان الخطر على انسانية الانسان وحريته تكمن تماما في سيطرة الروح العقلانية الكمية على العصر الحديث بدل ان تراها في سيطرة علاقات الاستغلال الاقتصادية وغير الاقتصادية عليه، ويعمل هذا الفكر على مستويين الاول استثمار اتساع وعمق قلق وعبث الحياة الحديثة ليركزه وكأنه ملازم للوجود الانساني بالمطلق ودائما، والثاني اسقاط سبب هذا القلق على تطور العلوم تحديدا فلا يخفي هذا التوجه ممثلا باعنف صوره لدى الفيلسوف هايدجر ادعاءه ولا يواريه ضمنيا ان الطريق الوحيد لخلاص الانسان من هذا القلق والعبث هو تدمير تاريخ العلم كله والعودة الى ينابيع الاصل الصافية للحقيقة بعد تحقيره للمراحل التاريخية التي اصبحت فيها معالجة شؤون الكون والانسان من اختصاص العقل والمنطق والمعرفة التاريخية والعلم والتقنية.
وببعض التغيير فان الفيلسوف هوسرل طرح فكرا فلسفيا مشتقا منه يستند الى ان العقل الانساني يحمل بطبيعته مجموعة من الافكار الكلية القبلية (نسبة الى القبل بكسر اللام كزمن) الفطرية (نسبة الى الفطرة) فكل علم من العلوم التخصصية في هذا الفكر يفترض واحدة من الافكار ويستخدمها ضمنيا ومن دون ان يعي ذلك. فالعلوم الطبيعية تفترض قبلا فكرة الطبيعة وتستخدمها، فرسالة هذا الفكر الخفية هي تركيز ان العلم يفصل وفقا لمقاييس ومعايير قائمة مسبقة في الذات البشرية.
٥. (احادية الظاهرة) التي تقصر مهمة العلم على دراسة الظاهرة وتصنيفها وتفسير ترابطها بمنهج علمي محايد لا يميل الى المادية في تعليلاته ولاينحاز الى المثالية في تفسيراته، أي اهمال واسقاط علمية ارجاع الظاهرة الى علل مادية حقيقية فاعلة و (بالتالي) تعليق صلاحية العلل المثالية الغائية وليس الغاءها تماماً ومن دون اطلاق طابع وصفي او تفسيري او سببي حول طبيعة الواقع الذي يظهر او طبيعة العلاقة التي تربطه بالظاهرة.
وقد تبنى هذا الفكر الفلسفي كل من برتراند رسل وسارتر، وهدفه الاساسي اعادة صياغة المثالية بحيث لا تتخلص فقط من طابعها السابق المعادي للعلم بل تكتسب شيئا من سمات المعرفة العلمية.
ان هذه التوجهات الفلسفية التي تريد اطالة عمر المثالية قدر الامكان انما تدل وبوضوح على حقيقة ان من المستحيل فصل العلم عن المادية. فكل من يتبنى المثالية سيجد نفسه لا محالة ينكر على العلم محتواه المعرفي ليحوله في افضل الاحوال الى محض اختراع وهمي من اختراعات العقل واعادة احياء الحدس ونظرية الافكار الفطرية والبحث عن اليقين المعرفي داخل الذات فقط، كما ان كل من يحمل العلم على محمل الجد على المستوى المعرفي سيجد نفسه مضطرا لتبني شكل من اشكال المادية ومهما كانت قناعاته الدينية.